الخطبة الواحدة والثلاثون

الزواج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، الحمد الله حتى يرضى، والحمد لله إذا رضي، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 4/ 1]، لقد خلقنا الله تعالى من نفس واحدة، لقد كرّمنا الله تعالى، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 7/ 189].

وقال: ليسكن إليها؛ السكنى للزوجة الصالحة، السكنى مكان الراحة، مكان المتعة، مكان السعادة، السكنى هي المأوى، هي الملاذ، هذه هي الصفات التي يجب أن تقدمها المرأة إلى زوجها، يجب أن تتحلى بهذه الصفات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «خير النساء التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره» حم - ن - ك.

ودخلت أسماء بنت يزيد الأنصارية رضي الله عنها على النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك، إن الرجال فُضلوا علينا بالجُمَع والجماعات، وعيادة المرضى وشهود الجنائز، والحج والعمرة والرباط، فقال رسول الله ﷺ: «انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء (أي: أخبري النساء اللاتي أرسلنك) أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يَعْدِلُ

ذلك كله» (أي: يعدل الجُمَعَ والجماعات، وما ذكرته من الفضائل للرجال).

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 30/ 21]، لقد كرر الله سبحانه تعالى معنى السكنى في هذه الآية، وقال بعض أهل العلم: إن الآيتين (189) الأعراف، و(21) الروم جاءت (ليسكن إليها) (لتسكنوا إليها)؛ فكرر (إليها) لأنها هي المصدر وهي أساس السعادة والهناء والراحة، وقد شرح رسول الله ﷺ ذلك بثلاثة أمور: 1 - حسن التبعل، 2 - مرضاة الزوج، 3 - موافقته. فلا مشاكسة ولا نكد ولا تذمر ولا شكوى، وتصلح أموره وأمور أولاده وأمور بيته. ولا يُفهم من هذا أن المرأة خادمة للرجل -كما يريد البعض شرح الحديث بشكل مغلوط- مطلقاً، ولا يعني الحديث -والعياذ بالله- أن الرجل مهما فعل فعلى المرأة طاعته.

الزواج آية من آيات الله تعالى تستحق التدبر والتأمل، لأن سعادة الإنسان الكبرى في الشريك، شريك العيش والفراش، شريك الخصوصية، شريك التملك، شريك القلب، آية من آيات الله تعالى لا تتحقق إلا بين الزوج وزوجته، يرى ذلك ويعيشه سليم الفطرة، سليم النظر، سليم الفكر والعقل، أما المِعْوَج والشاذ، والأحمق الذي لا يفكر ولا يعقل فما له حظ من هذا، لذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 30/ 21].

الزوج والزوجة من طينة واحدة، اشتركا في الصفات، نقص وضعف وخطأ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: 4/ 1]،

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأنعام: 6/ 98]، قول الخالق جلّ وعلا من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، تركيبة وطينة متماثلة له ما لها، ولها ما له، وفيها ما فيه، وفيه ما فيها. أجزاء تكمل بعضها بعضاً.

ثم التعبير القرآني الدقيق البديع الجميل بأن جعل الزواج سكناً للزوجين، كل

الناس بحاجة إلى سكن، السكن تعبير جميل عن الراحة والطمأنينة، تعبير عن الستر، تعبير عن السعادة التي يطمح لها كل إنسان.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 7/ 189]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: 30/ 21]، وكون الزوج سكن، والسكن حاجة أساسية فالزوج والزوجة يتمسكان به ويحافظان عليه، لأن السكن راحة وطمأنينة وسعادة وهدوء وأمان واطمئنان. الله سبحانه جعل بين الزوجين المودة والرحمة، هذا وعد الله تعالى فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:30/ 21]، لأن خالق الكون علم وقدّر بأنه حتى تستقيم الحياة لا بد من علاقة، ولا بد من سكن، ولا بد من مودة، ولا بد من رحمة حتى تستمر الحياة ويستقيم نظام الحياة.

الإنسان أيـًا كان ذكراً أو أنثى يريد حبـًا، يريد سعادة، يريد شريكـًا، يريد سكنـًا، يريد طمأنينة، يريد مودة، يريد علاقة خاصة، هذه العلاقة لا تقوم بين اثنين لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت، لا تقوم إلا بين زوج وزوجة، علاقة فريدة فيها كل الخصائص التي ذكرت، والله يحميها، والله يتولاها، والله أنشأها حتى تستمر الخِلْفَة وتستمر الحياة وحتى يتحقق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 6/ 165].

ثم استخدم الله سبحانه وتعالى تعبيراً فريداً جميلاً، يحمل في طياته معانٍ لا حصر لها، نعم إنه التعبير القرآني المُعْجز بكل نواحيه وبكل طرقه، فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 2/ 187].

قل لي بربك من يستطيع أن يأتي بمثل هذا التعبير إلا رب الأرباب؟ سماها لباس لي وسماني لباسـًا لها، ما هي وظيفة اللباس؟ ولماذا اللباس؟ لأن اللباس يباشر الجسد، لأن اللباس أقرب شيء إلى الإنسان، لأن اللباس ستر، فكأن الزوج ستر لزوجته وهي ستر له، هي أقرب شيء إليه وهو كذلك، اللباس حماية يحمي

الجسد من كل شيء؛ من الحر والبرد والأذى، فالزوجة حامية تحمي الزوج من كل ما يؤذيه، وهو حاميها من كل ما يؤذيها، وحاميها من كل ما يزعجها، واللباس حشمة ووقار، فالزوجة تستر العورة وتستر النقائص، وتستر التشوهات وتحميه ماديًا ومعنويًا وجسديًا وخلقيًا وهو كذلك، جمع ذلك الله سبحانه بكلمة واحدة: (اللباس)، وسمى الله سبحانه وتعالى الزواج بكلمة إعجازية أخرى، تحوي معاني كثيرة، تحمل القوة والثقة والاندماج والتماسك والتشابك، والعهد والوعد ... قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 4/ 21]، فالزواج ميثاق غليظ، فالمهر على الزوج حق، والنفقة حق، والمعاملة الحسنة حق، والحفاظ على دينها وشرفها وعفتها وصحتها وسعادتها وسلامتها من أي أذى حق، إذا لم يكن ذلك فالتسريح بإحسان، مع إعطائها حقوقها وصون سمعتها وشرفها، وعدم التكلم عنها بسوء، أو أي شيء يسيئ إليها ويؤذيها، فهي أختك في الله لها حقوق عليك وكما قال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: 2/ 229].

قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» الترمذي عن عائشة رضي الله عنها، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء خيراً» رواه مسلم.

أي: أن الرجل لا يتكلم بسوء، ولا يتهم زوجته بسوء، وليسأل إذا رأى ما يريبه، وأمره عليه الصلاة والسلام بأن يستوصي بالنساء خيراً. وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يفرِك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها غيره» مسلم -مسند الإمام أحمد.

قوله: (لا يفرِك) أي: لا يدقق ولا يعيب ولا يغيظ ولا يشمت ولا يتذمر ولا يضجر، لأنه لا يوجد إنسان كامل، وهو نفسه له سلبيات وإيجابيات، وهي كذلك هي إنسانة مثله، وكل الناس فيهم خير وشر، وكلمة (لا يفرك) صعبة لمعناها المُضْمَر، فأنت تفرك الثوبَ وتُفْرُكُ الحَبَّ، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ

نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: 2/ 187].

قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ اللباس هو الستر، اللباس هو الواقي. عمم هذا المعنى وافهم منه ما تشاء، هي ستر لك، فلا تفضحك، ولا تظهر عيوبك، وتعينك بأن تحصنك، فهي ستر لك عن الحرام، وهي واقية لك تحميك وتعينك، تساعدك، تحبك، وتدخل السعادة على قلبك، وأنت كذلك. والسؤال المهم الذي يجب أن تواجهه هو: هل أنت كذلك؟ هل أنت ذاك الرجل الذي يحميها ويسعدها ويعطيها الثقة والحب والحنان؟ أم أنت لاهٍ في شغلك ومع أصحابك، ولسانك صليت وعينك مطلقة... والباقي تعرفه، ثم تطالبها بما لا تقوم به أنت؟ فلنتقِ الله في أنفسنا ولنتق الله في أزواجنا وأولادنا، حقوق لنا وحقوق علينا.

فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعاجلها حتى تقضي حاجتها» أبي يعلى – مصنف عبد الرزاق، وعن ابن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «الدنيا كلها متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» مسلم.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله» ابن ماجه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دينار تنفقه في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك» م – د.

وهناك حديث جميل جداً، وهو عن كعب بن عجرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والصديق في الجنة، والمولود في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر في الله في الجنة، ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟ الودود الولود والعؤود، التي إذا ظُلمت

قالت: هذه يدي في يدك لا أذوق غمضاً حتى ترضى» صحيح الطبراني - والدار قطني.

هذا الحديث فيه نقاط أساسية فلقد عدد عليه الصلاة والسلام الرجال وأنواعها في الجنة، ثم أخبر النساء، قال بعض أهل اللغة: إن الأمثال تُضرب وذلك للتشابه بينها، فأنت لا تقارن تفاحة ببرتقالة، وإنما تقارن تفاحة بتفاحة أو وردة بوردة، وأنت لا تقارن وردة بتفاحة، فلا تماثل بينهما، وهنا قوله ﷺ: «ألا أخبركم برجالكم؟»، «ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟»، فالمقارنة هنا: أن من النساء من تكون برتبة الشهيد أو برتبة الصّدّيق أو أو...، على حسب عملها، ولكن أعلى مثل هي المرأة التي إذا ظلمها زوجها أو أخطأ في حقها، مع أنها مظلومة لكنها تصفح وتسامح وتتغاضى، وتأتي وتضع يدها في يده وتقول: والله لا أنام ولا أرى النوم حتى ترضى، وحتى تكون مسروراً، يا الله ما أجملها لأنها انتصرت على شيطانها الذي يأمرها بالثأر، ويأمرها بالانتقام، وانتصرت على نفسها التي تأمرها بأخذ حقها؛ لأن حظ النفس أمر عظيم، وانتصرت على المحاكاة العقلية التي تقول: بأنها هي المظلومة وصاحبة الحق وهي وهي... وانتصرت على ما يسمى: عزة النفس، وأتت بقلب صافٍ مفعم بالحب، مفعم بالخير، مفعم بالحكمة والعقلانية ومرضاة الله تعالى، وتضع يدها في يده تطلب منه أن يرضى مع العزم والتصميم ... هذه الإنسانة القوية على شيطانها و على حظ نفسها وكل المؤثرات الجديرة بأن تكون من أهل الجنة ومن مصاف الشهداء والصديقين والصالحين.

هذه المرأة تحظى بحب زوجها وحنانه واحترامه، ثم إنها بهذه السجية وبهذه الحكمة تُربّي زوجها، وتُعلِم بناتها، وتبني بيتها، ويَعْرِفُ زوجها حقها ويحبها ويحترمها ويجلها وهي بذلك ربحت الدنيا والآخرة.

وإليكم هذه القصة الجميلة: خطب عمرو بن حجر الكندي ابنة عوف بن ملحم الشيباني، وكانت تدعى: (أم إياس)، فقبل عوف خطبة عمرو، ولما كانت ليلة دخوله بها أتت أمها توصيها فقالت: يا بُنيَّة إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت، وعشك

الذي فيه درجت إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أَمَةً ليكون لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشراً تكن لك ذخراً:

فأما الأولى والثانية: فالرضا والقناعة، وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح، وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن شدة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالإحراز لماله، والإرعاء على حشمه وعياله، وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصي له أمراً ولا تفشي له سراً، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً والكآبة لديه إن كان فرحاً.

وقيل: أن أسماء بن خارجة زوّج ابنته فقال لها: إنك خرجت من العش الذي فيه دَرَجت، وصرت إلى فراش لا تعرفينه، وقرين لا تألفينه، فكوني له أرضاً يكن لك سماء، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكوني له أَمَةً يكن لك عبداً، ولا ترجفي به (تخوفينه أو تقلقيه) فيقلاك (فيكرهك)، ولا تتباعدي عنه فينساك، وإن دنا فاقربي منه، وإن نأى فابعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشم منك إلا طيباً ولا يسمع منك إلا حسناً ولا يرى منك إلا جميلاً.

قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 2/ 228]، قال المفسرون: وللنساء على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن من الحق، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه من المعروف بالمعروف، وهذا تحذير للرجال من ظلم الزوجة أو هضم حقها خلال الزواج أو بعد الطلاق. ولذلك قال ﷺ من حديث جابر: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» صحيح مسلم (1218).

توفيت زوجة الإمام أحمد رضي الله عنه وعنها، وكانت تسمى: أم صالح، فماذا قال الإمام أحمد عنها؟ قال: رحم الله أم صالح رافقتني ثلاثين سنة، والله ما اختلفت معها في كلمة واحدة! انتبه إلى ما قاله! قال: لم أختلف معها، أي: أنها دائماً كانت

على حق، وتقول الحق، وتتحرى الحق، فكيف يختلف معها؟ إنها التقوى والخوف من الله تعالى. أن تكون المرأة صادقة وفيّة تحب الحق وتنصر الحق وتتحرى الحق. كان دَخْلُ الإمام أحمد سبعة عشر درهمًا في الشهر، وكانت لا تكفيه هو وأولاده وزوجته. قال ابنه عبد الله: لبس أبي حذاءه في رجله ثمانية عشر عامًا ليس معه ثمن حذاء جديد. هل كانت زوجته ساخطة متبرمة منه ومن فقره؟ إنها التقوى، إنه الإيمان، إن الزوجة المؤمنة تقول لزوجها حين يخرج من بيته: اتقِ الله فينا، ولا تطعمنا إلا حلالاً، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

أعود إلى كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 4/ 1]، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 2/ 187]، ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 30/ 21]، هل أعامل زوجتي معاملة الند والشريك؟ هل أنا لباس لها؟ وهل هي لباس لي؟ هل أسكن إليها؟ وأرتاح إليها؟ ولا أصدق متى أصل إليها؟ هل أنتِ السكن والملاذ وبيت الراحة لزوجك؟ أم أنه يفضل أصحابه واللعب بالورق أو السهر في القهوة الفلانية أو المكان الفلاني؟

الحياة شراكة وأخذ وعطاء، وحقوق وواجبات، ومودة ورحمة وحب وحنان، ولا يوجد أجمل ولا أحلى ولا أبدع مما قال تعالى، ويا حبذا لو فهمناه حقيقة وبعمق: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ .

اللهم بارك لنا في أزواجنا وبارك لنا في زوجاتنا، اللهم بارك لنا وبارك علينا، اللهم اجعل بيننا مودة ورحمة، اللهم خذ بيدنا حتى ننشئ أسرة مسلمة ترضى عنها، اللهم ارزقنا الذرية الصالحة، اللهم اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين